المسلمون الأعاجم اتخذوا لغة القرآن لغة للفكر والعلم دول إسلامية تتخذ العربية لغة رسمية .

للدكتور عبد الرحمن حميدة

دكتوراه الدولة في الجغرافيا من السوربون
استاذ بكلية الآداب من جامعة دمشق

نعم ، هناك تلازم وارتباط وثيقان ما بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، اذ يكفي ان نشير الى ان رقعة العالم العربي الحالية تعادل اكثر من اربعة امثال مساحته قبل ظهور الاسلام ، والعكس صحيح ايضا ، اذ ما ان افل نجم الحكم الاسلامي عن شبه جزيرة ايبريا (البرتغال واسبانيا) حتى تقوضت اللغة العربية هناك من اركانها وتقلص ظلها بسرعة مذهلة فاقتصرت على بضع مئات من المفردات المشوهة . وانا لنلمح نفس الشيء في عصرنا الحاضر تماما .

فعلى اثر الثورة البلشفية ، عام 1917 ، في روسيا القيصرية وظهور الشيوعية كسلطة حاكمة فحسب بل معادية للدين Laïc ليست علمانية Antireligieux ، توقف نشاط الدراسات العربية والاسلامية في مراكز هامة من مراكز الثقافة العربية الاسلامية مثل باكو في جمهورية آذربجان ، وقازان عاصمة التتار ، وبخارى وسمرقند في التركستان فضلا عن الكف عن استعمال الحروف العربية في الكتابة المحلية القومية . هذا ويمكن ان يقال نفس الشيء بالنسبة لتركيا الكمالية التي ادت علمانيتها Laïcisme ، اي فصل الدين ، وهو الاسلام ، عن الدولة الى ابطال الكتابة بالحروف العربية وحتى الكلمات العربية واتخاذ كلمات طورانية الاصل واوروبية عوضا عن مثيلاتها في العربية ، وقطع اكثر ما يمكن من الصلات التي تشد الاتراك الى الاسلام وبالتالي الى العرب . واذا كانت اللغة العربية تدرس وتدرس في كثير من الجامعات الاجنبية فسبب ذلك يعود لدوافع عديدة ، اقتصادية وسياسية ، وغالبا تبشيرية ترمي الى تقويض الاسلام والقضاء ، بالتالي ، على اللغة العربية ذاتها .

ومن نافلة القول التنويه بما اصاب اللغة العربية من اهمال ومضايقات ابان الحكم الاوروبي الذي هيمن على اقطار المغرب العربي الاربعة واعني بها : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، حتى راح اهل الغيرة والحمية يتباحثون في مصير اللغة العربية والاسلام في البلاد المذكورة الى ان اذن الله بزوال الكابوس الغاشم ، وراحت اللغة العربية تسترد مواقعها السابقة ، واصبح التعريب الشغل الشاغل لدى المسئولين عن الثقافة في المغرب العربي .

ـ نعم ، انا اقول مع القائلين **بوجود علاقة سببية بين الاسلام واللغة العربية** وما سبق لي ان قلته آنفا يؤيد هذه العلاقة بين الاسلام ولسان الضاد اللذين كان سيرهما متوازيا تقريبا خلال التاريخ الاسلامي . هذا كما **انتشرت اللغة العربية بصفتها لغة القرآن** والعبادات والشريعة بين الشعوب التي اعتنقت الاسلام الحنيف ، اذ لا يمكن للمسلم ان يلم بمقومات دينه دون ان يكون لديه زاد معقول من الالمام باللغة الفصحى . اضف الى ذلك ان الامم الاسلامية ـ من

غير العرب ـ فضلت قراءة القرآن كما انزل ، دون ان تلجأ الى ترجمته الى لغاتها الاصلية خشية ان تؤدي ترجمته الى ضياع رونقه وبلاغته .

واذكر كاستدلال على ذلك ما نلاحظه في عالمنا العربي من سهولة تمثل Assimilation المسلمين من غير العرب ـ كالشركس والاكراد والبربر والفرس في الامة العربية وتعربهم بسرعة فائقة في حين تظل الجماعات غير المسلمة ، كالارمن والآشور وزنوج جنوبي السودان ، والاقليات الاوروبية في اقطار المغرب ، عاتية على التعرب والتمثل ، محافظة على لغاتها ، متفردة عن محيطها ، باستثناء السريان وبقايا الآراميين نظرا لشدة قرب لغتهم من العربية .

لا اشك ابدا ـ سواء اكان الامر يتعلق ببلدي ام بالبلاد الاسلامية الاخرى ـ بأن **الوعي الاسلامي والوازع الديني يمتدان ويتقلصان كلما اعترى اللغة العربية الضعف واستفحلت الامية والجهل** ، وتباعدت الشقة بين الفصحى واللغة الدارجة ، بحيث يصبح فهم وادراك القرآن والحديث بعيدا عن متناول سواد الجماهير . ولكن **ليس ما اقوله بقاعدة مطلقة** اذ نجد ان بعض الاقوام الحديثة العهد ، نسبيا ، بالاسلام تكون اكثر تمسكا بتعاليم الدين ، حتى المغالاة، علما بانها ابعد من العرب بكثير عن فهم الاسلام وتعاليمه . والغريب ان نلاحظ ايضا ان العرب خاصة ، والمسلمين عامة ، كانوا يتمسكون بدينهم ، وهم تحت نير الحكم الاجنبي ، اكثر من تمسكهم ، بعد نيل الاستقلال . ولعل ذلك يعود الى ان الجماهير كانت تعتقد حينذاك ان تركها للاسلام ، وقيمه الخلقية الرفيعة ، هو الذي اوقعها تحت وطأة الاستعمار وبلائه ، في حين ان الكثيرين من المثقفين ، المسحورين بآراء المبشرين والمستشرقين ، راحوا يجاهرون ، بعد الاستقلال ، بان سبب تخلف المسلمين هو الاسلام ، مع العلم بان الاسلام كان الباعث على التقدم والازدهار والمعرفة في البدء ، فكيف ؛ يصبح عنصر تأخر ورجعية حاليا ؟ هذا مع ان الاسلام كدين لم يطرأ عليه اي تبديل او تحويل وما زال القرآن بخير وسلامة .

ـ ان اثر الفكر الاسلامي ، الناجم عن لغة القرآن ، في اللغة الاقليمية واللهجات ، في الاقطار الاسلامية غير العربية ، او لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية او الاسيوية ، اقول ان **اثر الفكر الاسلامي واضح جدا** لدى هذه الشعوب ، سواء في لغة التخاطب اليومية او في آدابها . كما ان شدة اعجاب هذه الاقوام بالعربية واعتزازها بها جعل كتابها وعلماءها ، بالماضي ، يتخذون **العربية لغة الفكر والعلم** كالفارابي والخوارزمي وابن سينا وسواهم ، كما ان **الاسلام يسر لهم تعلم العربية** بصورة مدهشة . واذكر ان ميرزا محمودوف ، وزير التعليم في جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي في الاتحاد السوفياتي يجيد العربية كتابة وكلاما بطلاقة لم اعهدها في اي مستشرق آخر ابدا . واؤيد ما ذهبت اليه بالرغبة التي ما زالت تبديها بعض الشعوب الاسلامية غير العربية ، في **جعل اللغة العربية لغة رسمية** كالباكستان ، او كما حدث عمليا في **الصومال** التي اصبحت فيها العربية اللغة الرسمية حتى لتعتبر نفسها عضوا ، غير منتسب بعد ، في الجامعة العربية .

ـ ان **تاثير اللهجة الاقليمية** السورية في التعابير العربية المحلية **قليل ومحدود** وفي تناقص مستمر .

ـ واري ان **تحتل اللغة العربية مكان الصدارة** ، بلا منازع ، بالنسبة للغات الاجنبية لا سيما في تدريس التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، **باستثناء المواد العلمية** البحت ، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء ، طالما لم يتم بعد اتفاق شامل بين المختصين في العالم العربي على تعريب المصطلحات الاساسية فضلا عن الاختلافات في ترجمة بعض المصطلحات بين مختصي القطر الواحد .